الكاتب المصري

رجب ١٣٦٥ — يونيه ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ٩

من القاهرة إلى بيروت

أرأيت إلى الظلمة الحالكة التى تغمر السكون ، وتطبق على الفضاء ، وتجثم على كل شىء ، ويومض مع ذلك بين طبقاتها المتراكبة المتكاثفة برق ضئيل نحيل خاطف لا يكاد يظهر حتى يستخفى ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة العميقة المتكاثفة ، التى تلح على كل شىء حتى تضطر كل شىء إلى سكون متصل طويل هو النوم ، أو شىء يشبه النوم ، وحتى تكون كل حركة فيها حلماً ، أو شيئاً يشبه الحلم ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة البغيضة التى توشك أن تكون صورة للعدم الأبدى ، إن أمكن أن تكون للعدم الأبدى صورة ، والتى يجاهد فيها هذا البرق الخاطف ليمس الأشياء والأحياء بشىء من نور ، كما تجاهد القوة الخفية فى هذا العدم السرمدى لتشيع فى الأشياء شيئاً من وجود ؟

تصور هذا النحو من الظلمة كما تشاء أو كما تستطيع ، وقدِّر أنها هى التى كانت تكتنف نفسى فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل حين كنت أتهيأ للسفر . ولم أكن أعرف علة لهذه الظلمة التى كانت تكتنف نفسى وتملأ ضميرى ، وتأخذ عقلى من جميع أقطاره . فلم يكرهنى أحد على هذه الرحلة ، ولم يفرضها علىّ ظرف من الظروف ، وإنما أقبلت عليها عن رضا ، وأزمعتها عن اختيار . وهمّ المتصلون بى أن يصرفونى عنها ، فلم الق إليهم سمعاً ولا بالا . وإنما مضيت فى الاستعداد لهذه الرحلة ، لا أتردد ولا أقف عند عقبة من

العقبات ، أو مشكلة من المشكلات ، حتى إذا أصبحت أمراً واقعاً لا سبيل إلى العدول عنه أو التردد فيه ، ضاقت بها نفسى أشد الضيق ، وامتلأ لها قلبى حزناً ، وأقبلت عليها كارهاً لها أشد الكره ، مكرهاً عليها أشد الإكراه .

كان حزناً كاملا شاملا عميقاً ، يتخلله بين حين وحين ، شعاع ضئيل سريع ، من أمل أجده ولا أحققه . وكنت على ذلك أتهيأ للسفر ، نشيطاً عظيم النشاط ، آمر وأنهى ، وأسمع وأقول ، وأستقبل وأزور ، وأخضع فى أثناء هذا كله وعلى رغم هذا كله ، لهذا الحزن العريض العميق ، ولهذا الأمل الضئيل السريع ، كأنما كانت حياتى الشاعرة حلماً من هذه الأحلام التى تقطع راحة النوم . حتى إذا انتصفت الساعة الخامسة ، وانطلق القطار بعد هذه اللحظات الحلوة المرة ، التى يبسم فيها الوجه ويعبس فيها القلب ، ويكون فيها وداع المودعين وشكر المشيعين ، أويت إلى نفسى فى زاوية من زوايا « البولمان » ، أريد أن أفكر وأن ألتمس علة لهذه الظلمة القاتمة التى كانت تأخذ نفسى من كل وجه ، فلم أجد سبيلا إلى التفكير ولا إلى التعليل . وهممت أن أشارك من كان معى فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، فلم أجد سبيلا إلى القول ، كما لم أجد سبيلا إلى احتمال الصمت ؛ فقضيت هذه الساعات القصار الطوال ، بين القاهرة والإسكندرية ، فى قلق غريب ، لا أمنح نفسى ولا أمنح من حولى من العناية ، إلا أقلها وأيسرها ؛ لأنى لم أكن قادراً على تدبير إرادتى ، وتنظيم سيرتى مع نفسى ومع الناس . وكذلك دخلت الإسكندرية مع الليل ، وشاركت فى بعض الحديث ، وفى الجلوس إلى المائدة ، وفى الإصابة من الطعام ، وأنفقت الليل لا أدرى أكنت فيه نائماً أم يقظان ؛ فلم أفقد الشعور بنفسى لحظة ، ولم أتبين مع ذلك جلية نفسى لحظة ، وإنما كنت شيئاً يشبه الأداة المسخرة المسيرة التى تعمل فى دقة ونظام ، دون أن تحقق عملا أو دقة أو نظاماً . وكذلك أنفقت وجه النهار من غد ، وكذلك خلصت من هذه الجماعات التى كانت تزدحم حول السفينة ازدحاماً منكراً ، وتصطخب اصطخاباً بشعاً . وكذلك قلت وسمعت ، ورضيت وسخطت ، وابتسمت وعبست ، دون أن أحقق من هذا كله شيئاً ، ودون أن أجد لشىء من هذا كله ذوقاً ؛ حتى إذا تأذن صائح السفينة فى المودعين أن قد آن لهم أن ينصرفوا ، لأن السفينة مبحرة بعد حين ، ثابت إلىّ نفسى كلها ، أو ثبت أنا إلى نفسى كلها ، وإذا أنا أجد ما كنت أفتقد ، وأعلم ما كنت

أجهل ، وأتبين أن مصدر هذه الظلمة العريضة المتكاثفة ، ومبعث هذا الحزن الثقيل الملح ، ليس إلا شيئاً واحداً ، هو أنى أفارق مصر فى وقت لم تكن النفس تطيب فيه عن فراق مصر . فى وقت يحتاج المصرى فيه إلى أن يشعر بوجوده الوطنى قويًّا كاملا مسيطراً على عقله وقلبه ، مدبراً لعمله ونشاطه ، ملاحظاً لكل ما يقال ، ولكل ما يعمل ، ولكل ما يتناوله النشاط الفردى والاجتماعى . أليس كل شيء فى مصر يفرض على المصريين فى هذه الأيام ، هذه الملاحظة الدقيقة اليقظة التى لا يفوتها شيء ، أو التى تحاول ألا يفوتها شيء ؟ أليس مصيرها السياسى موضوعاً للأخذ والرد ، معرضاً لأن يقرر فى وقت قريب أو بعيد إلى أجل طويل أو قصير ؟ أليس مصيرها الاجتماعى موضوعاً للخصام والجدال ، معرضاً لأن يخطو إلى أمام خطوات تقصر أو تطول ، أو لأن يرجع أدراجه أمداً بعيداً أو قريباً ؟ أليست الحياة المصرية كلها تُمْخَضُ فى هذه الأيام مخضاً عنيفاً كما يمخض اللبن فى القربة ، دون أن يتحقق أحد النتيجة الممكنة لهذا المخض العنيف ؟ أليس طبيعيًّا مع هذا كله أن يقيم المصرى فى مصر ، متنبهاً يقظاً ، ملاحظاً ما استطاع الملاحظة ، عاملا ما استطاع العمل ، محاولا ما وجد إلى المحاولة النافعة سبيلا ؟ بلى ! ولكنه السأم الذى يصيب بعض النفوس حين تضيق بما حولها من هذا السخف الذى لا ينقضى ، ومن هذا الكلام الكثير الذى لا يغنى ، ومن هذا الخصام العنيف الذى لا يجدى ، ومن هذا النشاط المختلط الذى لا يفيد ، ومن هذا المكر الخفى الذى يفسد كل شيء ، ومن هذا الإخلاص الجلى الذى لا يُصلح شيئاً ، ومن هذا الكيد اليقظ الذى يستأثر بالخير ، ومن هذه الصراحة النائمة التى تورِّط فى الشر وتعرِّض للأذى ، ولا تغنى عن أصحابها ولا عن الوطن شيئاً . أجَلْ ! هو هذا السأم الذى يجده بعض النفوس من هذه الحياة المصرية التى يمكر بها الماكرون ، ويعجز عن إصلاحها الناصحون ، والتى يقاد فيها الشعب إلى غير ما يريد ، ويساس فيها الوطن على غير ما يحب . هو هذا السأم الذى يملأ النفوس فى بعض الأحيان ضيقاً وسخطاً ، ويدفعها إلى أن تود لو تجد من هذه الحياة الثقيلة مخرجاً يتيح لها الراحة الموقوتة من هذا العناء الثقيل البغيض ، الذى يشقى به أصحابه اعظم الشقاء ، دون أن يكون شقاؤهم هذا مغنياً عنهم أو عن غيرهم شيئاً

هو هذا السأم الذى كان يأخذ نفسى بين حين وحين ، ويدفعنى إلى أن أتمنى الراحة من هذه الحياة الثقيلة الفارغة ، أتيحت له الفرصة ذات يوم ، فبلغ بى ما أراد . تمنيت فى ذات يوم أن أستريح قليلا من هذه الحياة الجوفاء الممضة ، ولم ينقض النهار حتى كنت أدعى إلى فرنسا . فشككت غير طويل ، ثم أجبت إلى ما دعيت إليه ، ثم صممت ، ثم مضيت لا أقبل مشورة ولا أحفل بصعوبة . حتى إذا لم يبق فى القوس منزع ، ولا إلى التردد سبيل ، تمادت نفسى تذكر الواجب ، وتذكر الحق ، وتذكر العمل ، وتأسى على ما قدمت ، وتتمنى أن تستأنف التفكير ، وتنقض ما أبرمت . ولكن هيهات ! سبق السيف العذل ، ولا بد مما ليس منه بد . وهذه السفينة تترك الإسكندرية موجهة إلى بيروت لتوجه بعد ذلك إلى مارسيليا ؛ فلنصبر النفس على ما يجب أن نصبرها عليه ، ولنَحْيَ مع أهل السفينة حياتهم هذه الجديدة التى قد نجد فيها شيئاً من سلوا وفضلا من عزاء .

ولكن حياة السفينة على ما فيها من جدّة وطرافة ، وعلى ما فيها من اضطراب واختلاط ، لم تتح للنفس سلوًّا ولا عزاء ، وإن كانت قد جلَتْ بعض هذه الظلمة المتكاثفة ، وألقت بين نفسى وبين الحزن العريض البغيض حجاباً رقيقاً ، لا أكاد أفكر فيه حتى يزول ، وإذا أنا أستحضر مصر كما تركتها : مفاوضات تجرى من وراء ستار ؛ وانتخابات تجرى ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبَله العذاب ؛ وخصومات تتصل حول ما كان وحول ما هو كائن وحول ما يمكن أن يكون وحول ما يجب أن يكون ؛ وبؤس يلح حتى يضيق بنفسه ويبتئس بطبيعته ، وحتى يشق الشقاء نفسه لشدة ما يمعن فى طبيعته ؛ ونعيم ينتشر وينتشر حتى يضيق به أصحابه ، وحتى يلتمسوا الراحة منه ، بين حين وحين ، بتكلف شىء من هذه الحياة الخشنة التى تريحهم بالجوع من التخمة المتصلة ، وبالظمأ من الكظة المهلكة ، وبالشظف من اللين الذى يفسد النفوس ويضنى الأجسام . وأستحضر مصر كما يراها الطارئون عليها والزائرون لها من الأجانب بلداً غريباً غير مألوف ، له وجهان : وجه باسم يغرى ويدعو إلى الفتون ، ووجه عابس يملأ النفوس ضيقاً وسخطاً وإشفاقاً : رخاء يثير حسد الحاسدين وطمع الطامعين ، وشقاء يثير الرحمة فى القلوب التى لا تعرف الرحمة ، والرثاء فى

النفوس التى لم تتعود الرثاء . تَرَفٌ وشظف يسعيان فى طريق واحدة ، ويمشيان فى شارع واحد ، ويبتسمان للحياة ابتسامتين تتشابهان فى ظاهر الأمر ، وتختلفان فى حقيقة الأمر : إحداهما تستقبل الحياة ساخرة منها مزدرية لها ، والأخرى تستقبل الحياة راغبة فيها متهالكة عليها . والنيل يجرى مع ذلك للناعمين والبائسين جميعاً ، لم يخلق لفريق منهم دون فريق . والشمس مع ذلك ترسل ضوءها وحرارتها للناعمين والبائسين جميعاً ، لم تؤمر بأن تؤثر بهما فريقاً دون فريق . والهواء مع ذلك يملأ الفضاء ويتنفس فيه الناعمون والبائسون جميعاً ، لم يُكَلَّفْ أن يبيح التنفس فيه لفريق دون فريق . الأرض وحدها هى التى خرجت عن هذه القاعدة ، وامتنعت على هذا النظام ، فآثرت بما تحمل من الخير فريقاً من الناس دون فريق ، ولكنها رضيت آخر الأمر أن تكون كالماء والهواء والشمس ، حرة عادلة ، مسوية بين سكانها حين يدركهم الموت : تمنح كل واحد منهم هذه الحفرة الضئيلة التى يأوى إليها ليستريح ويريح ، لا تفرِّق بينهم فى ذلك قليلا ولا كثيراً . نعم ! كان أيسر شىء يكفى لأن يرفع هذا الحجاب الرقيق عن نفسى فأستحضر مصر كما هى ، وأذكر أنى راحل عنها فى وقت لا ينبغى أن يرحل فيه المصريون عن وطنهم ، وإذا أنا أعود إلى تلك الظلمة العريضة المتكاثفة وإلى ذلك الحزن البغيض العميق . على أنى كنت أتجنب ما استطعت رفع هذا الحجاب ، وأمعن ما استطعت فى مشاركة السَّفْر فى حياتهم هذه الضيقة المختلطة الفارغة .

وقد كانت هذه الحياة غريبة حقًّا ، لم أعرفها من قبل على كثرة ما ترددت بى السفن بين الشرق والغرب . فنحن فى أعقاب الحرب لم نصل بعد ، ولست أدرى متى نصل ، إلى الحياة اليسيرة المألوفة . ولا يكاد أحدنا يستقبل النهار أو يستقبل الليل متى خرج عن حياته التى ألفها ، حتى يرى ما يثير فى نفسه العجب حيناً ، والسخط حيناً ، والرضا حيناً آخر . وقد كان أول عهدنا «بالشمبوليزن» فى هذه الرحلة مثيراً لهذه العواطف جميعاً ، ولعواطف أخرى لا تكاد تحصى ، فضلا عن أن يفكر كاتب فى تسجيلها . فهذه السفينة التى ألفناها أنيقة مترفة ، قد فقدت كل أناقة وكل ترف ، لكثرة ما عملت فى البحر والمحيط أثناء الحرب ، ولكثرة ما تعرضت له من تغيير لتصبح ملائمة لنقل الجند ، بعد أن كانت مقصورة أو كالمقصورة على نقل المترفين من أصحاب الثراء . قد فقدت زينتها كلها

أو أكثرها، وأصبحت سفينة كغيرها من السفن، حَسْبُها أن تقل المسافرين لتنقلهم من ثغر إلى ثغر، وهى مع ذلك قداحتفظت بشىء ضئيل، ضئيل جداً، من بقايا هذه الزينة، فأصبحت أشبه شىء بالأطلال، ولكنها أطلال حية متنقلة ليست ثابتة ولا مُستقرة. وكانت زينة «الشمبوليون» من الطراز المصرى القديم، أليس اسمها يكفى للدلالة على ذلك! فقد ذهب كثير من هذه الزينة وبقيت منها ملامح ضئيلة، وأصبح هناك ائتلاف موسيقى بين هذه الأطلال المتحركة المتنقلة بين الثغور، وهذه الأطلال الثابتة المستقرة فى المعابد والقبور. كل شىء هنا وهناك يصور البلى، ويدل على عبث الزمان بالأشياء والأحياء ويعيد فى الذاكرة قول الشاعر العباسى القديم:

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلَى وَمَحَاكِ يا ليتَ شِعْرِى ما الذى أبلاكِ!

ونحن نعلم أن المعابد المصرية وغيرها من الآثار قد أبلاها مر الغداة وكر العشى، وأن زينة الشمبوليون قد أبلاها نقل الجند على ما يكون بينهم من اختلاط واضطراب، وأبلتها ضرورات الحرب التى لا تحفل بالعرف ولا تحفل بالزينة، وإنما تحفل بشىء واحد هو التغلب على المصاعب والإفلات من الموت.

وفى الشمبوليون كما فى كثير غيرها من السفن روعة مؤثرة، تأتى من هذا التناقض الغريب بين هذه الزينة البالية المهملة التى كأنها الأطلال، وبين هذه القوة العظيمة التى تملؤها حياة ونشاطا وتمكنها من مغالبة البحر والريح؛ لأن أدواتها متينة كل المتانة، رصينة كل الرصانة، شديدة البأس عظيمة المراس، قادرة على مغالبة الطبيعة، والثبات للعواصف والأنواء. زينة بالية تنمحى شيئاً فشيئاً، وأداة قوية تزداد بين حين وحين قوة وبأساً، والناس يضطربون بين هذين المتناقضين، يأسَوْن لهذا الجمال الشاحب الذى يوشك أن يزول، ويُعجَبون بهذه الأداة القوية التى تغالب الموج والريح. على أن هؤلاء الناس أنفسهم يثيرون فى النفس كثيراً من الخواطر المتناقضة، ففيهم الغنىّ الذى لا يستطيع أن يحصى ثروته، وفيهم المعدم الذى لا يجد ما ينفق، وفيهم متوسط الحال، كما يقال. وأولئك وهؤلاء سواء حين يصطخب الموج، وحين تعصف الريح، وحين ترقص السفينة بين اصطخاب الموج وعصف الريح. وهم سواء كذلك فى الخضوع لهذه الضرورات التى فرضتها الحرب من الاكتفاء بالقليل والخضوع للنظام والإذعان

لما لم يتعودوا أن يذعنوا له . هذا الرجل المترف الذى تجرح خديه خطرات النسيم ويدمى بنانه لمس الحرير مضطرٌ إلى أن يقنع بحياة خشنة كلها شظف وغلظة، ليس له غرفة يستأثر بها ، وليس له سرير يأوى إليه ، قد يسعده الحظ فيظفر بمضجع رقيق يعلقه فى السقف هنا أو هناك ، ويأوى إليه إذا جنه الليل فينام فيه نوماً متقطعاً ، مترجحاً فى نظام إن سكنت السفينة ، مترجحاً فى اضطراب إن لعبت الأمواج بالسفينة أو عصفت بها الريح . حتى إذا أرسل الفجر سهمه الفضى الضئيل تدلى من مضجعه ذاك الرقيق وضمه إليه كما يضم إليه مايحمل من متاع . وقد لا يتاح له هذا المضجع الرقيق ، وإذا هو هائم فى السفينة يصعد حيناً ويصوب حيناً، يلتمس لنفسه أشباراً يمد عليها جسمه حين يجهده الإعياء . وقد يلتمس شبراً أو شبرين يجلس فيهما ، أو قل يُقْعِى فيهما إقعاء قد عطف أعلاه على أسفله واستسلم للقضاء وانتظر أن يزوره النوم ، وجعل النوم يداعبه مداعبة بغيضة يدنو منه لينأى عنه ، وإذا هو كما يقول الشاعر القديم :

لا يذوق النوم إلا غرارا   مثل حسو الطيرماء الثِّماد

وليس كل الناس فى السفينة قادراً على أن يصيب حاجته من الطعام، فقوم يتاح لهم الجلوس إلى المائدة ، وقوم يسعون بآنيتهم إلى حيث يلقى لهم فيها خليط من الطعام يقيمون به الأود ويصدون به عن أنفسهم ألم الجوع . وقسمة الحظوظ بين هؤلاء الناس لم تجر على نظام مقرر ولا على قاعدة مألوفة ، وإنما هى قوة غريبة عمياء قد قسمت الحظوظ بين هؤلاء الناس كما أرادت هى لا كما أراد المنطق ، ولا كما أراد النظام ، ولا كما أراد ما دفعوا من المال . وليس لهم خيار بعد أن أبحرت السفينة ، فهم مضطرون إلى أن يقبلوا ويذعنوا . لهم أن يجهروا بالسخط وأن يضمروه ، ولكن إعلان السخط أو إسراره لا يغير من حظهم شيئاً . وهم قد قبلوا ذلك وأذعنوا ، وهم قد جهروا بالسخط وخافتوا به وأسروه فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم جميعاً سمعوا وأطاعوا ، ولم يخطر لواحد منهم أن يخالف عما كان يصدر إليه من أمر .

وقد كانت الأوامر تصدر إليهم جملة وتفصيلا ، لا من طريق المنشورات التى تعلق مكتوبة هنا وهناك كما ألفنا فى أوقات السلم ، ولكن من طريق الصائح العام الذى يعلن الأوامر بواسطة مكبر الصوت ، فيسمعها المسافرون جميعاً على اختلاف

طبقاتهم ومنازلهم فى وقت واحد ، ويأخذ كل واحد منهم بين هذه الأوامر ما يعنيه ، فيسمع ويطيع راضياً أو ساخطاً ، ولكنه سامع مطيع على كل حال. وكذلك أنفق المسافرون يوما كاملا مضطربين فى هذه الحياة المضطربة بين هذه العواطف المختلطة ، إلا السفينة فإنها لم تضطرب ولم تتردد ، وإلا عمال السفينة فإنهم لم يضطربوا ولم يترددوا ، وإنما مضوا بسفينتهم إلى حيث أمروا أن يمضوا لا يحفلون بأحد ولا يحفلون بشئ إلا بالواجب الذى ينبغى أن يؤدوه. حتى إذا بلغت السفينة «حيفا» من الغد كان المنظر الذى يبعث فى النفس ألماً أى ألم وغضباً أى غضب ورثاء أى رثاء وبغضاً أى بغض وحباً أى حب أيضاً. فقد كانت السفينة تحمل ألفاً أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين : من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم ، ومن النساء الأيامى ، منهن من فقدت كل شئ ولم تحتفظ حتى بهذا الأمل الضئيل الذى يرسم على الثغور هذه الابتسامة الحزينة ، ومنهن من فقدت كل شئ ، ولكن بين أحشائها حياة تثير فى قلبها الحزين المكلوم أملا ويأساً ، ورضا وسخطاً ، ولذة وألماً. وقد أقبل هؤلاء المهاجرون جميعاً يقودهم رسل من الحلفاء إلى فلسطين ليجدوا فيها أمناً بعد خوف وراحة بعد عناء. ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن فى الأرض أوطاناً كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين. وهؤلاء الجنود البريطانيون قد ملئوا ثغر حيفا بالعدد والعُدّة وبالبأس والقوة ، ليحموا هبوط هؤلاء البائسين إلى هذه الأرض التى تُكرَه على إيوائهم إكراها. وهؤلاء البائسون يهبطون من السفينة فى نظام ، ترتفع أصواتهم البائسة المتهالكة بغناء لست أدرى أكان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين ، أم كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين ، أم كان يصور هذا كله فى وقت واحد. لست أدرى ! ولكنى أعلم أنه كان يملأ النفوس غيظا وحنقا ورحمة ورثاء ، حتى عمال السفينة أنفسهم كانوا ينظرون إلى هذا كله ساخطين عليه ضيقين به مبغضين له ، يجهرون بالشكوى من تحكم المنتصرين الذين يسخِّرون سفينة فرنسية لشئ يملأ صدور العرب حرجا وضغينة دون أن يستطيعوا إباء وامتناعاً. أليست فرنسا مضطرة إلى أن تصانع المنتصرين من البريطانيين والأمريكيين لتستطيع أن تعيش !

وقد انجلت هذه الغمرة آخر الأمر ، ورفع هذا الحمل الثقيل عن الصدور ، وأبحرت السفينة من حيفا إلى بيروت ، وقد شاع فيها وفى أهلها شئ من المرح

يشبه ما يجده النائم حين يزول عنه الكابوس أو حين تؤمنه اليقظة من حلم بغيض منكر مخيف.

ولم تشرق الشمس من غد حتى كانت الحياة كلها ابتساماً رائقاً رائعاً حين أقبلت السفينة على بيروت، فإذا السماء الصافية تبسم للأرض المشرقة، وإذا الجبل الشامخ الرصين يبسم للبحر الهادئ الرزين، وإذا الأحياء المستقوون على الأرض يبسمون للأحياء المقبلين من البحر، وإذا هؤلاء السَّفْرُ أنفسهم قد امتلأت قلوبهم غبطة وفاضت وجوههم بهجة وبِشْراً. أليسوا مقبلين على الراحة بعد الجهد، وعلى النعيم بعد البؤس، وعلى اللين والخفض بعد الشدة والشظف! كل شئ كان رضا، وكل شئ كان ابتساما، إلا هذه القلوب الخبيثة التى لا تعرف الصفو الخالص ولا النعيم النقى البرىء، وإنما تفسد كل شئ بما تدبر من كيد، وما تضمر من شر، وما تنظم من مكروه. فلم يكن جميع الذين هبطوا من السفينة يستقبلون حياة نقية بقلوب نقية. كان فيهم من يفكر تفكيراً بريئاً فى راحة بريئة، وكان فيهم من يفكر تفكيراً خبيثاً فى راحة خبيثة كان فيهم من يبتغى حياة هادئة وادعة فى لبنان الهادئ الوديع، وكان فيهم من أعد للشر عدته فهو يريد أن ينتفع هنا وهناك، يريد أن يبيع ويشترى، يريد أن يسرق ويختلس، يريد أن يغير نقداً بنقد، وأن يفيد من هذا التغيير قليلا أو كثيراً، يجهر بذلك حيناً ويخافت به حيناً ويخفيه فى أعماق نفسه فى أكثر الأحيان. وكذلك اندفع أهل السفينة إلى الأرض، وتلقاهم أهل بيروت، وجرت الأمور بين أولئك وهؤلاء كما تجرى بين الناس حين يلتقون فى كل مكان.

مزاج من الخير والشر، وخليط من الطهر والإثم. والأبرياء والغافلون يرون هذا كله ولا يستطيعون له تغييراً، بل لا يستطيعون حديثاً عنه أو خوضاً فيه، وإنما يرون وينكرون، ويقول بعضهم لبعض أو يقولون لأنفسهم إنما هى الحياة تجرى كما تستطيع، وإنما هى طبيعة الإنسان لا تستطيع أن تخلص للخير وحده، ولا أن تخلص للشر وحده، وإنما هى مضطرة إلى أن تضطرب بين هذا وذاك، يدفعها العقل إلى الخير فترغب فيه وقد تصيب منه، وتدفعها الغريزة إلى الشر فتتورط فيه وقد تغرق فيه إلى الأذقان أو إلى الآذان.

وقد زرت بيروت مرات كثيرة، ولكنى لم أر أهلها يبسمون للحياة فى

صراحة ، ويسعدون بها فى صراحة ، ويستقبلونها فى رضا وأمن وأمل ، كما رأيتهم هذه المرة . ولم لا ؟ ألم يظفروا بما لم يظفر به كثير غيرهم من هذه الحرية السياسية، ومن هذا الاستقلال التام الذى تحلم به الشعوب المستضعفة وتتحرق قلوبها شوقا إليه ؟ لم لا يستقبل اللبنانيون سفينتنا هذه مرحبين بها باسمين لها ؟ ألم تلمّ بثغرهم العظيم لتجلى المحتلين عن أرض لبنان ؟ ومع ذلك فقد كان ابتهاج اللبنانيين على عمقه وقوته هادئاً كل الهدوء وقوراً كل الوقار متوثباً مع ذلك، يشعر بأن القوم لا يستقبلون استقلالهم على أنه نعمة سيقت إليهم ، ولا على أنه فوز كسبوه بعد الجهد والجد والعناء ، ولكن على أنه المرحلة الأولى من طريق طويلة طويلة جدًّا ، عسيرة عسيرة جدًّا ؛ لأنها طريق الواجب الذى يفرض على الشعب المستقل أن يثق بنفسه وأن يعتمد عليها فى احتمال التبعات الثقال التى لا تحصى . فليس الاستقلال لعباً ولا لهواً ، وليس الاستقلال منحة تهدى ولا نعمة تتاح ، وليس الاستقلال إخلاداً إلى الراحة واستمتاعاً بالحياة ، وإنما الاستقلال ثقة بالنفس واعتماد عليها، وبذل للجهد ونهوض بالعبء ، وإقدام على العمل فى غير أناة ولا تباطؤ ولا كسل : إقدام على العمل لإسعاد البائس وإطعام الجائع وتعليم الجاهل ، وإنصاف المظلوم ، وإقرار العدل ، وتحقيق المساواة . واللبنانيون يشعرون بهذا كله ، ويقدرون هذا كله ، ويروضون أنفسهم على النهوض بهذا كله . وهم من أجل ذلك لا يكاثرون ولا يفاخرون، ولا يتحدثون عن الاستقلال حديث الغافل المتهاون ، وإنما يتحدثون عنه حديث الرجل الذى يملأ قلبه الرضا ويملأ قلبه الحزم والعزم والثقة ، ويملأ قلبه فى الوقت نفسه الحذر والاحتياط . فهم يتحدثون إليك حديثاً فيه حلاوة الرضا ، ولكن فيه مرارة الصرامة والجد . وهم من أجل ذلك يلقون فى نفسك صوراً جديدة غير التى ألفتها منهم حين كنت تزورهم قبل هذا العام .

آنست ذلك عند صفوتهم من الشيوخ والشباب ، كما آنست ذلك عند عامتهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ؛ فلم أملك أن تمنيت للبنان كل ما يتمنى لنفسه ، وأن تمنيت لمصر كما يتمنى لها لبنان هذا اليوم الذى تشعر فيه بالسعادة الراضية الحازمة ، وبالأمل الواثق المطمئن .

وقد أنفقنا فى بيروت يومين لقينا فيهما من أهل لبنان ما تعودنا أن نلقى من هذه الضيافة الحلوة المرحة الخصبة التى تشعر الضيف بأنه ليس ضيفاً ، وإنما هو

رجل يعيش فى وطنه وبين أهله ، لا يجد فى ذلك مشقة ولا جهداً ، ذلك إلى هذا المتاع العقلى الذى يجده المصرى المثقف حين يلقى اللبنانيين المثقفين . وقد كادت هذه الزيارة تكون صفواً كلها ، لولا أنى سألت عن صديق لبنانى أديب كانت له فى نفسى كما كانت له فى نفوس الأدباء الشرقيين جميعاً مكانة ممتازة . سألت عنه لأنى كنت أريد أن أسعى إليه . قلت لصاحبى : كيف حال الأستاذ عمر فاخورى ؟ فقال فى هدوء حزين : لقد دفناه أمس يا أستاذ . هنالك أخذ النَّدِىُّ كله وجوم طويل لم نقل فى أثنائه شيئاً ، وإنما قالت قلوبنا فى أثنائه كل شىء . وما عسى كنا نستطيع أن نقول ، وقضاء الله أقوى وأمضى وأصرم من أن نملك أمامه شيئاً غير السكوت والإذعان ، وهذا الحزن الذى يفنى القلوب ، ويضاعف ثروة العقول . لم أقل شيئاً ولم يقل أصحابى شيئاً ، وإنما اتخذت لهذا الأديب اللبنانى العظيم قبراً فى ناحية من نواحى قلبى ، كما اتخذ اللبنانيون له قبوراً فى قلوبهم ، وكما احتفروا له قبراً فى مكان ما من أرض لبنان .

طه حسين